الفطنة والنظر، يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح، والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرددون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة وبالشقاق على أهل الرياسة»[1].

I- وسائل جلب الانتباه:

I-1- الصّمت:

إن القصد يحدد فعل الوعي وبنيته في الوقت ذاته، ولهذا كان لابد للحجّاج من اكتساب الكفاءة في ذلك الصمت الذي تعمده، لأنه يمثل لحظة اشتياق، أو شوق يتولد عنها جلب الانتباه، وذلك أن الصمت يستدعي شوقا لما يود الإنسان أن يتفوه به حتى تزول الحيرة وطول الانتظار.

وهكذا فإن الصمت يعد وسيلة عظيمة من وسائل جلب الانتباه، وبالتالي حسن الإصغاء لكل لفظة سيتلفظ بها الحجاج، وذلك أن السماع هو أول القنوات التي يصل من خلالها الصوت (الخطاب) إلى وجدان السامع وعقله. يقول الجرجاني: «...والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن...»[2]. ومن هنا تتجلى الجدلية بين الصمت والكلام في العملية التواصلية، ليصبح بالإمكان تحقيق الوجود البلاغي بين المتكلم والسامع.

---

1)- البيان والتبيين، عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط، 2001، ج229/1.

2)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، ص: 149.

وفي الصمت عبر كثيرة ذكرها الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» كما ذكرها غيره من الشعراء.

- فمن قول الجاحظ: «وقالوا الصمت حكم وقليل فاعله»[1].
- كما قالوا: «استكثر من الهيبة صامت»[2].

ومن قول أبي العتاهية[3]:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالفَتَى مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ
كُلُّ امْرِئٍ فِي نَفْسِهِ أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ قَرِينِهِ

وبعد هذا، يبدو وكأن الحجاج كان على اطلاع لما للصمت من قيمة ودور عظيم في جلب الانتباه وحسن الإصغاء، خاصة وأن هذا الخطاب كان وجها لوجه، أي أنه كان موجها إلى متلق حاضر (أهل العراق)، وعلى حد تعبير تامر سلوم أن «ما تقع عليه الحاسّة، أوضح مما لا تقع عليه، والمشاهد أوضح من الغائب، وما يدركه الإنسان عن نفسه أوضح مما يعرفه عن غيره، والقريب أوضح من البعيد، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف»[4].

I-2- الأبيات الشعرية:

وبالإضافة إلى الصمت فإننا نجد الحجاج يستسيغ الأبيات الشعرية التي ألفها أهل العراق، لأن الشعر صناعة تنجز وفقا لمعايير مسبقة تهدف بالدرجة

1)- البيان والتبيين، ج1/164.
2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
3)- المرجع نفسه، ص: 124.
4)- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاّذقية، ط1، 1983، ص: 256.

الأولى إلى تقريب الأشياء إلى المتلقي ومن ذلك ما استهل به الحجاج خطبته حينما ولي العراق.

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطــلاّعُ الثَنَايَــا مَتَى أَضَعُ العَمَامَة تَعْرِفُــونِــي

ولقد كان التلقي يعيش وضعا صارما صرامة المعايير التي ينظر بها إلى الإبداع وإن تحولت الأشكال التعبيرية عنها، فإن المنحنى يشير إلى هيمنة تصور له سند قوي عند ملاك الثقافة المركزية هدفه «المعنى الحقيقي وإن تعدّدت الأساليب لتقصّيه، فلقد تحدّث النقاد مثلا عن الرونق الذي يضفيه المجاز على الكلام، وقيل إن الكلام مت خلا من الاستعارة، وجرى كله على الحقيقة، كان بعيدا عن الفصاحة، بريا من البلاغة»[1].

ومن هنا كان للغة التي سلكها الحجاج بكثافتها ورمزيتها أن تتيح إمكانات ثرية للمتلقي في إنشاء المعنى وفهمه، وإن كان قد استغرق كثيرا في تهديداته إلى حد التصوير المرعب الذي ترتعش له القلوب وتشمئز له النفوس.

و لم يخرج الحجاج عن العادة، فقد ولج خطابه بما يعهده أهل ذاك الزمان (أهل العراق) وبما ألفوه، وهو لذلك تفنن في اختيار الألفاظ الملائمة، ولا نحسبه لم يوفق في اختيارها، ما دامت الألفاظ خدما للمعاني.

ولعل المطلع على معظم خطب الحجاج، يلاحظ كيف أنه برع في اختيار الألفاظ الجديرة بنقل المعنى المراد، وإحداث التأثير المرغوب، وبالتالي إقناع المتلقي بكل ما يريده الحجاج منه، وهكذا فإنه سيذعن ويستسلم دونما تردد، مقتنعا من أن إذعانه واستسلامه هذا لا يخدم الحجاج فقط، وإنما هو ذود عن الدين والدولة معا، وبالتالي إرضاء الخالق والمخلوق، وضمان الأمن والسلامة.

1)- المرجع نفسه، ص: 288.

جاء في كلام الجرجاني: «من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أظن وأشغف»[1].

ومن هذا المنظور، يمكننا القول إن نفس الحجاج كانت تتوق إلى الإعلاء من مكانته السياسية، لذا نراه قد تدرج في –خطبة الولاية– في أساليب الإقناع لإيمانه القوي، من أن انتصاره على أعداء الخليفة عبد الملك ابن مروان، سيجلب له ما يرجوه ومن ذلك قوله «إن أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه–. «فهذه العبارة توحي بالدعاء للأمير بطول العمر ولكنها تخفي وراءها طمعا في التقريب من الأمير، وإعلاء المكانة السياسية حتى إن بعض الكتب تشير إلى أن الحجاج كان يطمح في أن يصير أميرا[2].

وإلى جانب فصاحة الحجاج وحسن تخلصه بالبيان والحجج، يبدو أنه كان على جانب كبير من الدراية بعلم النفس، والإلمام بوسائل الإقناع، فقد كان يخاطب عواطف الناس، كما كان يخاطب عقولهم، وكان لا يكتفي بوسائل الإقناع المعروفة آنذاك، كالشعر والآي القرآني، وإنما كان يلجأ كذلك إلى الحيل كحرب العصابات حتى يشغل أهل العراق بالفتوحات في الأطراف الشرقية البعيدة عن مفاسد السياسة الداخلية[3].

ومما يلاحظ في خطبة الولاية وغيرها من المنتخبات أن الحجاج يكثر من الأساليب البيانية والبلاغية التي يبدو أنه لا مفر منها، بعدها عمود الإقناع وأساسه، وكذا لأنها تجمع بين الحجة وطريقة الكلام.

---

1)– أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، بيروت، ط2، ص: 118.

2)– 10 ثورات في الإسلام، ص: 149.

3)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبالإضافة إلى أن البلاغة تعد عمود الإقناع وأساسه، فقد قيل عنها: «جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التبس من المعاني، أو غمض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر، ثم قال: وزين ذلك كله وبهاؤه، وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال»[1].

فالحجاج يبدأ خطابه ببيت شعري يحاول من خلاله أن يعرف بنفسه رغم أنه معروف عند الجميع، ولكن ذلك الأفق الإيديولوجي «للأنا» الواقعية يسمح بقبول مواطن التوتر في الخطاب لأنه يتماشى مع ظاهر ذلك الأفق خاصة وأن الحجاج بصدد تجسيد صور مرعبة تنتظر كل من تخلف أو عصى أو تمرد.

ولقد سعى الحجاج إلى تدعيم أقواله مرة بالشعر والأخرى بالآي القرآني، ومرة بالوسائل البلاغية المعروفة من سجع، و تشبيه، وكناية، واستعارة، وترادف وتكرار، وغيرها، وما كل ذلك إلا من أجل أن يسقط المتلقي المعنى الجاهز على تلك الأشعار، وتلك الشواهد ليوصل كل ما يود إيصاله. وهكذا فان اللغة الإقناعية التي انتهجها الحجاج بإمكانها أن سمح للمتلقي بإنشاء المعنى.

وحتى يتجنب الحجاج أي التباس قد يثير قريحة المتلقي، أو يذهب بفهمه بعيدا، استعان بالشعر الحماسي الذي يساهم في شحذ الهمم، والاستعداد للحرب.

1)- البيان والتبيين، ج63/1.

ومن منظور بعض المؤرخين أن سبب قسوة الحجاج على أهل العـــراق عامة والموالي خاصة، راجع إلى أن أهل العراق كانوا على اســـتعداد دائـــم للحرب، وحتى تظل دمشق عاصمة البلاد الإسلامية، سعى الحجـــاج إلى أن يثبت حكم الشام، وذلك من أجل إقرار النظام في البصرة والكوفة وفارس[1].

ولقد ساهمت الأبيات الحماسية التي استعان بها الحجاج وكذا استشهاده بالآيات القرآنية في إنجاح دور عملية التلقي المتمثل في الفهم والتمييز، ومـــن خلال خطبة الولاية وغيرها من المنتخبات يبدو أن جمهور الحجاج كان على قدر المساواة مع صاحب الرسالة من حيث درجة الفهم لما اســـتعمله مـــن ألفاظ، هذه الألفاظ التي توحي في معظمها ببيئة صحراوية بدوية هـــي بيئـــة الحجاج وذهنية أهل العراق، وإلا لما كان خاطبهم بهذه الفصاحة، ولا جادلهم بهاته الحجج، ولما استعان بتلك الآية وتلك الأشعار الحماسية.

ويبدو واضحا، من خلال خطبة الولاية أن الحجـــاج يـــود إصـــلاح جمهوره، حيث إن كل ما ورد بمتن تلك الخطبة، يجعلها تستجيب للمنـــاخ العام للتلقي، وذلك أنها تلتقي مع خطب السابقين التي عهدوا سماعها من قيل الخلفاء والأمراء والولاة وكذا الحكام.

I–3– الجمل الإيقاعية:

وتماشيا مع الذوق العربي يندفع الحجاج إلى استعمال الجمل الإيقاعيـــة التي تحمل في طياتها دلالة رمزية ليختزل المسافة بينه وبين فهم الـــسامع، لأن اللغة الرمزية تكشف عن رؤية جمالية مغايرة لما كان سائدا أو معهودا لـــدى

1)– 10 ثورات في الإسلام، ص: 145.

فئة معينة من المتلقين، على ألا تتعارض هذه اللغة الرمزية مع ما تواضعت عليه الجماعة المتحدة اللغة.

وبالإضافة إلى الجمل الإيقاعية، فقد استعمل الحجاج أساليب إقناعية، جعلت المفاهيم تنفذ إلى وعي أهل العراق، وتحدث الأثر المرغوب والذي يتمثل فيما بعد في استجابة أهل العراق لنداء الحرب من رجل يمقتونه لكنهم مقتنعون بمطالبه التي تخدم الدين والدولة، وتحقق لهم الأمن والسلام، ويكاد الحجاج يتفرد في خطبه بالتهديد والوعيد، الذي يراه اللغة الأكثر إقناعا لقوم ألفوا عصيان الولاة والتمرد على المطالب والخروج عن الدين.

وإذا ما قورنت خطب الحجاج بخطب الحكام والولاة السابقين، فإنها لا تكاد تختلف معها إلا من حيث استغراق الحجاج في لغة التهديد والوعيد وكونه لم يستهل بعض خطبه بالحمد والثناء، مقلدا غيره من الحكام والخلفاء، راجع إلى نقمته وحقده على أهل العراق وأهل الكوفة الذين لو سنحت لهم الفرصة لقتلوه كما فعلوا مع الأشتر النخفي الذي خلصهم من سعيد بن العاص، الذي لم تتم له السنة حتى ساروا إليه فقتلوه[1].

وهكذا فإننا لا نستغرب ذلك التعريض في الصفات لأهل العراق (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق). وهو تعريض غرضه التحقير والاستهزاء والتصغير لأهل العراق، لما عرفوا به من شقاق ونفاق.

ولقد وفق الحجاج في اختياره لتلك الأبيات الشعرية الحماسية دون غيرها لأنها تناسب المقام انطلاقا من أن لكل مقام مقالا، وكذا لأن لهذه

1)- 10 ثورات في الإسلام، ص: 154.

الأبيات الشعرية إمكانات إخبارية تتجاوز الإمكانات البنيوية البسيطة، بالإضافة إلى أن الكلمات هي وصف يحوم حول موضوع الخطاب. ولذلك فإن الحجاج يتنقل في نصوصه بين الرمز الذي هو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظهر به أهله»[1].

I-4- الإشارة:

الإشارة هي «ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه»[2]، كقول الحجاج مخاطبا أهل العراق: «من أعياه داؤه، فعندي دواؤه...»، فالداء هنا ليس المرض، وإنما هو رمز للعصيان والخروج عن تعاليم الدين، والدواء ليس هو العلاج، وإنما هو رمز للسيف، وكل هذا إشارة إلى التخويف.

وكما هو معلوم، فإن الإشارة تجمع بين اللفظي والمرئي، وتختزل حالات الفكر والقلب معا، مما يجعل المتلقين يتفاعلون مع موضوع الخطاب/الرسالة، وبالتالي ينسجمون مع مقصد الخطيب. والنص كما يقول «إيزر» لا يمكنه أن يوجد إلا من خلال الوعي الذي يتلقاه سواء في لحظة البث أو في لحظة القراءة ومسارها التاريخي؛ فالباث وهو يتحول إلى متلق يحاول أن يطابق بين الفعل الذل ينص عليه وبين طبيعة رد الفعل الذي يصدر عن المتلقي، ويرغب فيه وهو بمثابة حصر لحدث الفهم[3].

---

1)- اللّمع، الطوسي أبو نصر السرّاج، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، د.ط، 1960، ص: 414.

2)- مواقف في الأدب الأموي (تحليل، دراسة، منتخبات)، د.عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ص: 283.

3)- L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique, ISER Wolfgang, presse mergaba, Editeur, P : 49.

- نقلا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص: 46.

وهكذا فإن «الإشارة» تعبير عن احتواء المعنى، وسعي لتنميته، كما أنها دعوة إلى الاختلاف وتغيير الآفاق بواسطة التأويل الذي يسهم في تلقي الخطاب وإلقائه ضمن شروطه البنيوية والدلالية، أو خارج هذه الشروط[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نصوص الحجاج طفرة ضمن التقاليد السابقة والسائدة، وإن كان النقل المعرفي الذي تأسست عليه قد اعتبرها نصوصا سياسية دينية، فإن الانزياح الدلالي يثبت أنها نصوص سياسية محضة، ومرد ذلك أنها تميل إلى الحث والتحريض، كما تميل إلى التهديد والوعيد، وهذه ضغوط يمارسها الحجاج على أهل العراق لما يحمله لهم من حقد ونقمة، لعصيانهم وقتلهم للحكام كما سبق الذكر.

ولقد ثبت أن الأوزان الشعرية وإن كانت مرتبطة بالسماع والإنشاد، إلا أنها تسهم في ثبات الفضاء النصي أو على الأقل في هيمنة الوجود السابق الذي منحوه شرعية التمتع بخصائص منفصلة عن القائل، والنص الذي يكتبه أو يشكله[2]، وإن رأى البلاغيون والنقاد لاحقا أن في دلالات الأوزان علاقة بالأغراض[3]، ولذلك نرى الحجاج يدعم ما يدعو إليه بتلك الأشعار الحماسية لأنها تلائم الغرض المقصود، وهو إقناع أهل العراق بخوض المعركة.

وكما هو معروف، فإن توليف الشعر يقوم على تخير لفظي وزني محكوم بتلك القواعد والمقتضيات التي تقوم على تخير قالبي، وإذا صح التعبير فإن

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 50.

2)- شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، جودة فخر الدّين، دار الآداب بيروت، ط1، 1984، ص144.

3)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 52.

هذا التخير اللفظي يسعى إلى التلاؤم مع معنى سابق، له بغيـــة تزيينـــه؛ أي إظهاره في حلة جديدة[1]، وهذه الحلة الجديدة هي ذلك الفضاء الصوري من استعارات وتنبيهات.

ولقد وجد العرب في المنطوق مقياسا للانتظام والتناسب الوزني للشعر، حتى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يخطبوا صاغوا جملهم على شكل من التناســـب والانتظام الذي يشبه الشعر ومن ذلك خطبة الحجاج بعـــد معركـــة ديـــر الجماجم، وكذلك خطبته في البصرة التي جاء فيها مايلي:

«يا أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال **أجله** فعلـــي أن **أعجله**، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن اســـتطال **ماضـــي** عمره، فصرت عليه **باقيه**، إن للشيطان **طيفا**، وللسلطان **سيفا**، فمن سقمت **سريرته**، صحت **عقوبته**، ومن وضعه **ذنبه**، رفعه **صـــلبه**، ومـــن لم تتبعـــه **العافية**، لم تضق عليه **الهلكة**...»[2].

ويبدو جليا أن شكل التناسب والانتظام هو الذي أدى إلى استـــصاغة نمط معين من الشكل التناظري المبني على الإيقاع الرتيب المتساوي تفعيليا[3]. كما في خطبة الولاية «نثر، عجم، وجد» وعلى هذا الأساس سمي المنطـــوق بالشفاهية الأولى والمكتوب بالشفاهية الثانوية.

ومهما يكن من أمر، فلقد نجح الحجاج في تبليغ رسالته إلى أهل العراق، وما قيام الحرب وخروج أهل العراق إلا دليل على أنهم اقتنعوا طوعا أو كرها

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 283

2)- العقد لفريد، ج4/ص: 16.

3)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 44-55.

بما جاء في خطبة الولاية، وإن كان بعض النقاد يرى بأن هدف الحجاج من وراء خطبته هذه لم يكن إقناع الجمهور، وإنما هدف إلى فكرة أساسية هي إخضاع أهل الكوفة وإذلالهم وحملهم على الالتحاق بالجيش[1].

وبعد عرضه لموقف الحجاج من خطبة الولاية يرى «عمر فاروق الطباع» أن العناصر الثانوية التي لجأ إليها الحجاج لتحقيق هدفه، تجتمع تحت شعار «الإرهاب» الذي اتخذه وسيلة للوصول إلى الغاية التي توخاها، وهي تشتمل على وصف نفسه ببعد النظر ومضاء العزيمة «أنا ابن جلى وطلاع الثنايا» و«إني والله يا أهل العراق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين». فالحجاج لجأ إلى هذه الوسيلة لئلا يتوهمه السامعون رجلا ضعيفا، وخائفا مترددا، وغبيا لا ينفذ نظره إلى دخائلهم وإلى أساليبهم الملتوية[2].

ولكي لا يتوهم أهل الكوفة أن الحجاج رجل عادي، فيستخفّوا به وبوعيده، كشف القناع عن مكانه وكفايته ومقامه من سائر قواد بني أمية قائلا: «وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي».

وفي سبيل التعريض بالصفات فلقد وجه الحجاج إلى أهل العراق سيلا من التهم التي تدينهم، وتوجب عقابهم «يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق» وقوله: «لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال» وقوله كذلك «وكأنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله

1)- مواقف في الأدب اللغوي، ص: 277.

2)- المرجع نفسه، الصحة نفسها.

لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون».

أما باقي الخطبة فانفجارات غضبية، وتهديد لا اعتدال فيه وتحقير لا حدود له، «إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها»، وقوله: «والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل» وقوله: «وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحي».

وعندما تيقن الحجاج من انهيار أعصاب سامعيه بذلك الوابل من التهديدات التي أمطرهم بها، ولما تيقن أيضا من عجزهم عن المقاومة، كشف عن مطالبه التي لابد في حالة الرعب والذعر التي خلقها في نفوسهم من أن يستجاب لها، لأنها وليدة الخوف لا وليدة الاقتناع، «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله».

ولكن على الرغم من ذلك، فإن معظم منتخبات الحجاج تمثل نموذجا للخطبة العربية الإقناعية.

II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج:

II-1- التحاور:

هو فعالية خطابية تقوم على المشاركة والتعارض كآلية أساسية، وقد عرفه «طه عبد الرحمن» بقوله: «هو أن يتقلب المتحاور بين العرض والاعتراض منشأ لمعرفة تناظرية وفق مسالك معينة»[1]، ولهذا فإن التحاور هو

1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، د.ط، 1987، ص: 43.